الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية الآداب والحضارة الإسلامية

**الملتقى الوطني الأول حول: مظاهر الانفتاح الفكري والأدبي في إسهامات الأمير عبد القادر الجزائري.**

الاسم واللقب: هشام ذياب.
الرتبة العلمية: أستاذ محاضر – ب.
التخصص: التاريخ الحديث والمعاصر.
عنوان مؤسسة العمل: المركز الجامعي – بريكة.
الهاتف الشخصي: 06.68.36.57.79
البريد الالكتروني: diab.hicham@cu-barika.dz

المحور الذي يندرج ضمنه البحث: التسامح وخطاب الحوار الحضاري عند الأمير عبد القادر.

عنوان المداخلة: **دور الأمير عبد القادر الجزائري في معالجة فتنة دمشق –رؤية استشرافية –**

**المقدمة:**

يمثل الأمير عبد القادر الجزائري رمزية المقاومة وروح الأمة المتسامحة والقادرة على الجمع بين المتضادات، كما يعتبر رائد حركة الكفاح القومي الإسلامي التحرري ضد الغزو والاستعمار الأوربي، وموقظ الشعور القومي العربي ضد الاستبداد، وهو الذي ما إن وصل إلى بلاد الشام وإلى دمشق تحديدا عام 1856 حتى كان من الأعيان الأشراف، وكثر حوله أهل المغرب وكثر مريدوه، وكان الأمير خلال هذه المرحلة لا يزال يعمل على استقرار حاله، وخاصة أن مسؤوليته كبيرة جدا، وانكب على التدريس والتأليف مبتعدا عن الحكم والحكام، ولكنه سرعان ما وجد نفسه أمام امتحان صعب تمثل في فتنة دمشق 1860، التي انطلقت شرارتها من لبنان وكادت تؤدي إلى حرب أهلية في المنطقة بأسرها بين المسلمين والمسيحيين، وإن كانت هذه الحادثة عابرة في حياة الأمير عبد القادر فإننا هنا بحاجة إلى أن نلمس فكر الأمير ونظرته للآخر في سياق تاريخي ومنهجي أمام الأحداث التي عاشها إثر هذه الحادثة، فالمعلوم أن المنطقة كانت تعيش فكرا ظلاميا تكفيريا بين فئات المجتمع المختلفة، فسعى الأمير إلى معالجة الأزمة من خلال رؤيته الاستشرافية للأحداث وتعاطيه معها، ليضرب لنا مثلا يقتدى به في المفهوم الجمعي ومفهوم التعايش بين الديانتين، وليرسم بذلك

منهجا وطريقا لأجيال وأجيال، كما قدم رؤية عصرية ونموذجا للتسامح والمحبة والإخاء خارج التعصب والتمييز بين فئات المجتمع.

وعليه جاءت إشكالية الدراسة حول الدور المهم الذي لعبه الأمير في ترسيخ مفهوم التعايش المجتمعي الذي قل نظيره في عالمنا العربي والإسلامي.

**أولا: نفي الأمير عبد القادر واستقراره في دمشق.**

بعد توقيع معاهدة الاستسلام بين الأمير عبد القادر والسلطة الفرنسية عام 1847، تم نقله إلى فرنسا وسجنه هناك، ليتقرر فيما بعد الافراج عنه والسماح له بالسفر من أمبوز إلى استانبول في 08 يناير 1853، فزار ضريح الصحابي أبي أيوب الأنصاري، والتقى مع شيخ الإسلام العلامة "عارف حكمت" وزار الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا، وحظي بزيارة السلطان عبد المجيد ومدحه بقصيدة طويلة، وبعد عشرة أيام رحل إلى بروسة محل إقامته الجديدة، وقد قال إثرها بأنها تشبه تلمسان.[1]

تفرغ الأمير في بروسة إلى القراءة والكتابة والتدريس، فأضحى مزارا لأهل العلم من المغرب والمشرق، ويذكر أنه خلال إقامته هناك ألف كتابه: " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" والذي قدمه للمجمع العلمي الفرنسي في باريس[2]، وترجمه للغة الفرنسية الكاتب: غوستاف دوغا، وصدرت هذه الترجمة لأول مرة سنة 1858. حيث اكتشف من خلالها القارئ الفرنسي شخصية الأمير المفكر العربي الأصيل، حيث تكمن قوة شخصيته في الرؤية الخلافية للمنظور اللاتيني للفلسفة والمنطق وأن الديانات الشرائع الدينية الثلاث تنبع من معين واحد، وأن رسالة الأنبياء والرسل تهدف إلى تكريس حرية الانسان المتمثلة في التسامح والحب والتعاون بين الشعوب، وليس إلى تقويض المعرفة العلمية والفلسفية كما يراها البعض.

وظل الأمير على تلك الحال حتى ضرب الزلزال مدينة بروسة، أين طلب من الباب العالي الانتقال إلى دمشق، فكتب السلطان إلى والي الشام نديم باشا آنذاك وأمره باستقباله، وعندما رست سفينته في ميناء بيروت استقبله أهلها وعلى رأسهم الوجهاء من آل الصلح وآل يموت وغيرهم استقبال الأبطال، واضطرّ وهو في طريقه إلى دمشق إلى أن يتوقف في منطقة الدروز في مدينة "العلية" بناءا على طلبهم ليكون ضيفا عزيزا عليهم، ممّا جعل الرحلة من بيروت إلى دمشق تستغرق عدة أيام، أما في دمشق ذاتها، كان استقبالها له منقطع النظير، والمتتبع لوصف هذا الاستقبال كما أورده صديقه وتلميذه الشيخ "عبد الرزاق البيطار" في كتابه "حلية البشر في تاريخ القرن الثاني عشر" يدرك أن دمشق لم تستقبل في تاريخها أحدا كما استقبلت صلاح الدين الأيوبي والأمير عبد القادر الجزائري. وتتفق نظرتهم للأمير عام 1877 مع

[1] محمد عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر**، شرح وتعليق: ممدوح حقي، ط2، دار اليقضة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1964، ص25.

[2] شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وتقديم أبو القاسم سعد الله، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص28.

نظرتهم له عام 1856، بل زاد تعلقهم به وبأفكاره، فقد كانت نظرة 1856 مبنية على السماع وعلى الحس العفوي، أما نظرة 1877 فقد بنيت على تجربتهم واحتكاكهم بالرجل مدة أكثر من عشرين سنة، مما يدل على أن الأمير لم يكن منعزلا، ولم يكن مستسلما.

وقد كان لقدوم الأمير عبد القادر الجزائري إلى دمشق نقطة تحول كبرى في ذات الأمير، فصورته التي سبقته والمتمثلة في ذلك المجاهد العظيم والعالم الزاهد سليل الدوحة المحمدية، جعلته يدخل المدينة من الباب الواسع، فتقدم للتدريس وغصت حلقات دروسه بالطلبة الذين أبهرهم علمه وطريقته التي جمعت الموروث بالحديث والأصول والعقيدة بالفلسفة، مما جعله محط الأنظار من الجانبين الإيجابي والسلبي، ونقصد هنا كثر حوله المريدين والطلبة من جهة، ومن جهة أخرى كثر حوله الحسد والريبة من قبل السلطة ومن بعض أشباه العلماء. [3]

وبالنظر إلى الأحداث التاريخية آنذاك في بلاد الشام، نجد أنّ الأمير ومن خلال دروسه التي كان يلقيها أدخل فكرة العروبة ومعه نخبة من العلماء ذو الأصول الجزائرية من أمثال الشيخ "المهدي السكلاوي" و"محمد الصالح السمعوني" و"الخروبي القلعي" و"محمد بن عبد الله الخالدي" فكان لهم الفضل في تعديلها لتكون مقبولة، وجميعهم كانوا يلقون الدروس في المسجد الأموي أو في المدرسة الجقمقية أو مسجد العنابة أو دار الحديث وكان جلهم شخصيات عربية إسلامية مجاهدة، لا يرقى شك إلى عروبتها وإسلامها وجهادها، والذين كان معظمهم جزائريون ومغاربة.

وقبل التطرق إلى مفهوم العروبة والقومية العربية عند الأمير عبد القادر بالمشرق العربي وجب علينا التذكير بالانتكاسة التي تعرضت لها القومية العربية في بدايات القرن التاسع عشر، إذ خاب رجاء التيار العربي الإسلامي في الجزيرة العربية وبلاد الشام بمحمد علي ودولته، كما خاب رجاء التيار العربي الإسلامي في سلطان المغرب، وأن هذه الإنتكاسة في حقيقتها لا تتفق أبدا مع منجزاتها على أرض الواقع، فقد كانت "الحركة الوهابية" تتقدّم، وكان الجزائريون يتقدمون ...، لكن في الأربعينيات نجد محمد علي ينسحب من بلاد الشام، ويتخلى سلطان المغرب عن الأمير عبد القادر، وقد يكون ذلك تمّ بإبرام صفقة بين كلّ من باريس ولندن واستانبول وفاس..، ولا ندر حقيقة لما تمّ ذلك.

وفي مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الحركة القومية العربية في المشرق والمغرب قد تلقت ضربات قاتلة، فدولة "محمد علي" صارت لعبة بيد البريطانيين والفرنسيين، وليس هناك سوى الحركة السنوسية في عسير وقبيلة "حرب" في بعض نجد، وأما في الشام فلم يبق سوى جمعيات علمية بسيطة بدأت عام 1846 بسيطرة فرنسية وبريطانية. [4]

[3] شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص277.

[4] سهيل الخالدي، **دور الجزائريين في حركة التحرر العربي** ...، مرجع سابق، ص25.

وبالعودة إلى هذا الموضوع حول نشر الفكر العربي من طرف الأمير عبد القادر، نجد أنّ الرّجل أتيح له ملامسة أوضاع وطنه العربي في المشرق والمغرب لمس اليد، وأن يلتقي بالنخب في الأقطار التي زارها، تذكر المصادر التاريخية أن السيد "محي الدين" تحرك مع ابنه الأمير عبد القادر إلى الحج عن طريق البرّ والبحر، فكانت بدايتهم من وهران مرورا بوادي الشلف وبرج حمزة فقسنطينة، ثم محطة الكاف ومنها إلى مدينة تونس، وكانوا في كل محطة ينزلون عند إخوانهم وأحبائهم الذين فرحوا بمقدمهم ومقامهم عندهم، ومن تونس ركبوا البحر متجهين إلى الإسكندرية، وانتقلوا بعدها إلى القاهرة وزاروا بالمقطم مقام مرشد السالكين الشيخ "ابن عطاء الله السكندري" أحد شيوخ الطريقة الشاذلية، كما زاروا مساجدها العريقة وتعرفوا على أعيان المدينة وكبراءها وجالسوا علماءها، وأعجبوا شديدا بما وصلت إليه الحياة في مصر من تقدم وازدهار، وبعد هذه الإستراحة في مصر سافروا مع الركب المصري، ووصلوا إلى قناة السويس فركبوا البحر الأحمر نحو جدّة ثمّ مكّة المكرمة، وبعد أداء فريضة الحج زاروا المدينة المنورة، ومن المدينة رحلوا إلى دمشق بصحبة الركب الشامي ومكثوا فيها عدة شهور، وتعرفوا على مشاهير العلماء الأعلام، وكانوا يقضون جلّ وقتهم في الجامع الأموي دائبين على القراءات وحضور حلقات الدروس العلمية التي كان يدرّس فيها كبار العلماء، ثمّ توجهوا إلى بغداد واستقر بهم المقام فيها، وزاروا مقام عبد القادر الجيلاني، وجدّدوا العهد مع نقيب الأشراف وشيخ الجادة القادرية الشيخ "محمود القادري الجيلاني، وبعد مقام دام عدة شهور غادرو بغداد نحو الشام، ثم توجهوا إلى المدينة المنورة ثم إلى مكة وأدوا مناسك الحج للمرة الثانية وكان ذلك عام 1828،[5] وقد أسهمت هذه الرحلة بشكل كبير في بلورة فكره الديني والسياسي، ولا شكّ أنّ هذا الاضطلاع الواسع والمفصل على حال الأمة العربية لم يحظ به أيّ قائد أو مثقف عربي في تلك الفترة من القرن التاسع عشر، ممّا جعله يتميّز عن غيره بتحليل الوقائع، وربّما هذه القدرة هي التي جعلت والده يرشحه لقيادة المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، كما أنّ المدة التي عاشها الأمير في دمشق من عام 1856 حين قدم إليها من (بروسة) التركية حتى تاريخ وفاته في 1883/05/24 هي مدة طويلة ولا شك (27 سنة).

**ثانيا: مكانة الأمير عبد القادر الجزائري في بلاد الشام:**

في القرون الماضية بايع أهل المغرب العربي الزعيم الأموي[6] الهارب إليهم من دمشق أميرا عليهم، فأسس الدولة الأموية في المغرب العربي والأندلس، تلك الدولة التي قدمت للحضارة البشرية ولأوربا الشيء الكثير، والذي لا يستطيع أحدنا أن ينكره، وفي 1877 كادت أن تتكرر الحادثة بطبعة شرقية هذه المرة مع الأمير عبد القادر.

[5] علي بن محمد الصلابي، **سيرة الأمير عبد القادر، قائد رباني ومجاهد إسلامي**، دار المعرفة، بيروت، ص106-107.

[6] المقصود به هو عبد الرحمن الداخل.

وتبدأ هذه الصفحات التي كشف عنها مؤرخون وكتاب من خارج عائلة الأمير ومن خارج مؤرخيه التقليديين أنّ القوميّون العرب عقدوا مؤتمرين سريين في كل من بيروت وصيدا وتدارسوا أمر انفصالهم عن الدولة العثمانية وتأسيس دولة عربية مستقلة، وكان هؤلاء من الوجهاء الذين ليست لهم أدنى علاقة بالإرساليات الأوربية أو الجمعيات الثقافية، ومنهم "أحمد الصلح"، "محمد الأمين"، "علي عسيران"، "علي الحر"، "شبيب الأسعد"، ... وغيرهم، ولعل عدم وجود علاقة هؤلاء الزعماء بهذه الإرساليات هو السبب الذي جعل مؤرخي الإستعمار وتلامذتهم من العرب يقفزون هن هذه الحركة الإستقلالية العربية، ويحاولون طمس معالمها، ثمّ قرّر هؤلاء عقد اجتماع موسّع في دمشق يضمّ القيادات الدمشقية لتدارس الأمر، وبالفعل عقد الاجتماع على الأرحج في منزل نقيب الأشراف بدمشق الشيخ "تقي الدين الحصني"، وقرروا ترشيح الأمير عبد القادر الجزائري لقيادة حركتهم، وأن يكون ملكا على بلاد الشام، وذهبوا إليه في قصره بضاحية "دمر" واقترحوا عليه الأمر، فوافق على ذلك من حيث المبدأ، ويقول في ذلك قدري قلعجي: " ... وقد اتصل "أحمد الصلح" بعدد كبير من زعماء سورية، وتنادى الجميع إلى عقد مؤتمر في بيروت، ثم تلاه مؤتمران في دمشق، وقرر المؤتمرون العمل لتحقيق استقلال البلاد الشامية، وترشيح الأمير عبد القادر الجزائري ليتولى الملك على هذه البلاد،[7] ويقول عبد العزيز الدوري في كتابه: "التكوين التاريخي للأمة العربية" عن هذه الحركة وموقف الأمير منها: " ... اتجهت الحركة إلى استقلال سورية في حالة تعرض البلاد لخطر استيلاء دولة أوربية، وبخلاف ذلك يكون الإتجاه نحو الحكم الذاتي في إطار الدولة العثمانية، ورأت الحركة في الأمير عبد القادر رئيسا للدولة الجديدة.[8]

وقد قبل الأمير برنامج الوجهاء من حيث المبدأ، ولكنه نصح أن يؤجل الموضوع إلى أن يتيقّن كيف ستخرج الدولة العثمانية من الحرب مع روسيا، كما أن "يوسف كرم" –الذي سنأتي على ذكره لاحقا– كان يعيش في أوربا (روما)، تبادل رسائل مع الأمير حول مشروع سياسي، يبدوا وكأنه يتلاءم مع مشروع الوجهاء، وهكذا يبدوا أنّ حركة الوجهاء سارت على أسس وطنية لا طائفية، وأنها تحركها الفكرة العربية.[9]

ويبدو أن الوجهاء كانت لهم أسباب قوية في اختيار الأمير عبد القادر لهذا المنصب، حيث ربطوا بين هذه الدولة العربية التي ينشدونها والتي يسعون إليها، وبين الدولة التي أقامها في الجزائر، كما ربطوا كفاحه في هذه الدولة وبين الكفاح الذي ينتظرهم آملين تحقيق الوحدة الشاملة على يديه دون أن يتوقفوا عند كونه من مواليد الجزائر في المغرب العربي، وأنهم من مواليد الشام والمشرق العربي.[10]

---

[7] نقلا عن سهيل الخالدي، **الإشعاع المغربي** .. ، مرجع سابق، ص132.

[8] نفسه.

[9] عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي**، ط1، 1984، ، نقلا عن: سهيل الخالدي، **الإشعاع** ..، المرجع السابق، ص132.

[10] سهيل الخالدي، **دور الجزائريين** ..، المرجع السابق، ص31.

ويقول أحد الذين كشفوا هذه الصفحة وهو "عادل الصلح" حفيد "أحمد باشا الصلح": "... ولقد اختار أهل الديار الشامية الأمير عبد القادر الجزائري ليكون رأس حركتهم ورئيسا للدولة التي عزموا على إنشائها، وذلك لشرف نسبه، ولأنه بطل قومي ومجاهد وسياسي قدير فذّ، ورجل علم وأخلاق ومكارم، ولأنه سبق وأنشأ دولة عربية قوية في بلاد المغرب الأوسط، وناضل في الدفاع عنها ضد الاستعمار نضالا كان أسطورة ذلك الجيل، واحتل بذلك في الأمة العربية مرتبة عزّ نظيرها...".

ويتابع الصلح قائلا: "... وقد اصطفاه أهل الديار الشامية دون أن يخطر لأحدهم أنه ليس من أهل المشرق، وأن المشرقي أولى منه بهذه الولاية، لأن النزاعات الإقليمية لم يكن لها أي اعتبار في ذلك الزمن، فكان ابن الجزائر وابن دمشق وبغداد وبيروت وسائر بلاد العرب مواطن عربي قبل أي شيء آخر ..." [11].

وإذا افترضنا شهادة "عادل الصلح" عن طريق جده هي شهادة المسلمين السنّة، فكيف هي شهادة المسلمين الشيعة؟

إن شهادة الشيعة المسلمين حول هذه الواقعة تأتي من أهم علماء الشيعة، إذ يقول "محسن الأمين"[12] في ترجمته لجدّه "محمد الأمين" تبدوا أشدّ وقعا من شهادة أهل السنة إذ يقول: "... وحدّث خبير أن سبب نفيه إلى طرابلس أنّه اجتمع جماعة من عظماء سورية، منهم المترجم وأحمد باشا الصلح وغيرهما، وقرروا إنشاء دولة عربية، واختاروا لها الأمير عبد القادر الجزائري، وخابروه بذلك واجتمعوا ...، وكانت كتب السيد "محمد الأمين" ترد إليه من دمشق، ويكتب في أعلاها دار الإمامة، فعلمت بذلك الدولة العليا، فكان ذلك سبب نفيه إلى طرابلس ..."[13]

وإن التحليل هنا يقودنا إلى الإقرار بالفكر العربي لدى الأمير عبد القادر وبعبقريته الفذة في تفاصيل هذا المشروع، ذلك أنه وجد طريقا لإدخال شيعة لبنان في قلب المشروع القومي فحضروا لأول مرة في تاريخهم مؤتمرا سياسيا ينظر في استقلالهم، فهم يقطنون منطقة الجنوب الجبلية والتي تسمى "جبل عامل"[14]، وهم أكثر الشيعة في العالم الإسلامي عروبة، إذ هم أنفسهم قبيلة بني عاملة المهاجرة من اليمن، وبسبب تشيّعهم من جهة وعروبتهم ذات الأصول اليمنية من

---

[11] عادل الصلح، **سطور من الرسالة، تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة 1877**، دار الملايين، بيروت، 1966، ص102.

[12] محسن الأمين (1867-1952) هو محسن الأمين العاملي من شقراء، أحد كبار ورجال الدين الشيعة في لبنان، أكمل جزءا من دراسته في مدينة (النجف) كما هو الحال بالنسبة للعديد من رجال الدين الشيعة، له مؤلفات كثيرة تجاوزت المئة مؤلف في العقيدة والتاريخ والحديث والمنطق والأصول والفقه والنحو والصرف والشعر والأدب والقصة، كما أن له ردود مختلفة وكتب في الرحلات. وفيما يأتي بعض مؤلفاته: رسالته العملية سماها الدر الثمين في أهم ما يجب معرفته على المسلمين، أبو تمام الطائي، أبو فراس الحمداني، أو نواس، الاجرومية الجديدة ولعل أشهرها كتاب "أعيان الشيعة"، للمزيد حول حياته ينظر: آغا بزرك الطهراني، **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، منشورات دار الأضواء، بيروت، لبنان، 1984.

[13] محسن الأمين، **أعيان الشيعة**، ط1، بيروت، 1958، ص432.

[14] جبل عامل أو جبل الجليل أو جبل الخيل أو بلاد بشارة أو بلاد المتاولة أو البشارتين، ي المنطقة التي يطلق عليها اليوم اسم لبنان الجنوبي أو جنوب لبنان، وقد ضمت إلى لبنان بعد إنشاء دولة لبنان الكبير سنة 1920. ينظر: ياسين سويد، **التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين**، ط1، 1980، ص34.

جهة أخرى همّشتهم الدولة العثمانية التي فشلت على مدى قرون في احتلال اليمن وضمه إليها، ولم تستطع دخوله، ويقول في ذلك المؤرخ الشيعي "محمد جابر آل الصفا"[15] أن ذلك المؤتمر هو بمثابة مؤتمر لبيعة الأمير عبد القادر ملكا على العرب، كما أن ذلك المؤتمر كان أول مؤتمر اشترك فيه الشيعة للنظر في استقلال سورية وفصلها عن جسم الدولة العثمانية،[16] وما ينبغي الإشارة إليه هنا أن العرب بعد انتهاء الدولة العثمانية أبقوا على سياستها اتجاه شيعة لبنان، لأنهم فشلوا في فهم العروبة نفسها رغم ادّعائهم بها، وها هي إيران تستقطبهم باسم الدين والمذهب، وهنا تتّضح عبقرية وثورية الأمير عبد القادر في فهم التفاصيل، فالثوري لا يقف عند العناوين، أوليس "فلاديمير لينين" هو الذي قال في خضم ثورته "لا بدّ من التفاصيل".

وإذا اعتبرنا شهادة الشيعة في نهاية المطاف هي شهادة مسلم لمسلم، فما هي شهادة المسيحي؟

هنا نقف عند صفحة في التاريخ لم يقف عندها الباحثون الجزائريون، وهي علاقة الزعيم الماروني "يوسف كرم" الذي نفته فرنسا من لبنان إلى الجزائر، والظاهر أن هذا الأخير انتقل بعدها إلى إيطاليا وكان يرسل من هناك برسائل إلى الأمير يقترح فيها أن يكون عبد القادر ملك المملكة العربية المنتظرة، ولا يكتف بذلك بل يدخل في التفاصيل ويقترح أن تكون مملكة كنفدرالية .. ويؤكّد أنّ المسيحيين العرب لا يعترضون على قيام دولة عربية إسلامية تحفظ حقوقهم.

وفيما يخص مراسلات يوسف كرم مع الأمير فنوجزها فيما يلي: في إحدى رسائله [17] دعا كرم إلى التحرك نحو الفعل وإعلان استقلال العرب تحت راية الأمير عبد القادر على أن تحتفظ الأقاليم العربية بميزاتها الخاصة ضمن الوحدة الشاملة، وكان "كرم" يؤمن بأنّ الأمير هو الذي أرسلته العناية الإلهية لينقذ العرب من براثن الإستعمار،[18] ومن رأيه أنّ نوع الحكم يكون اتحاديا (كونفدراليا)، وفي رسالة مغفلة، يشير الكاتب (الوسيط) إلى أنّه على اتصال بالأمير وأنّ هذا الأخير مستعد لإرسال ابنه "الأمير علي" لمساعدتنا للحصول على المطلوب.[19]

---

[15] محمد جابر آل صفا (1870-1945) هو محمد جابر بن طالب بن محمد آل صفا العاملي، مؤرخ وأديب وشاعر لبناني من أهل النبطية في جبل عامل (جنوب لبنان)، وهو صاحب كتاب تاريخ جبل عامل، وهو من أشهر الكتب التي تذكر تاريخ تلك المنطقة. ينظر: عمر كحالة، **معجم المؤلفين**، ج9، منشورات إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ص145، كذلك ينظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج6، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، 1980، ص68.

[16] محمد جابر آل صفا، **تاريخ جبل عامل**، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1981، ص299.

[17] نص الرسالة في الملحق رقم: 01.

[18] عادل الصلح، مرجع سابق، ص113.

[19] نفسه، ص121.

وقد كرّر "كرم" –الذي كان يقيم في روما–[20] دعوة الأمير إلى بثّ فكرة الاستقلال والاتحاد بين العرب، وإرسال وفود إلى العواصم الأوربية لتحقيق هذه الفكرة والاتصال برجال الدولة العثمانية للوصول إلى حلّ يرضي العرب والأتراك، فإذا أخفقت المساعي، فإنه لم يبق للأمير إلاّ سلخ البلاد العربية عن جسم الدولة العثمانية.[21]

وقد وصلت إلى الأمير أربع رسائل على الأقل من "يوسف كرم" في الموضوع نفسه كما أرسل إليه الأمير عدة رسائل بواسطة صديق ثالث.[22]

وفي نفس الفترة نجد أن جهة عربية أخرى امتدت إلى الأمير عبد القادر في دمشق وهي مصر، إذ وصلته رسالة من حزب "مصر الفتاة" ليكون رئيسا لهذا الحزب الوطني العربي موقعة من أحد قادة هذا الحزب، وهو الكاتب السوري المعروف "أديب إسحاق" يقول فيها: " ... أيّد الله الأمير الأعز، ونحن عصبة تذكر ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، رأينا ما ألمّ بهذه الأقطار من الأضرار ناشئة عن تحالف القلوب وتنافر الأفكار حتى صار الودّ مدجاة للحب عدوانا، فقلنا يا قوم لا تتنافسوا (ولا تحاسدوا) ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ... ورأينا أنوار فضل الأمير على طور تجلى الحكمة وتوقظ الراقد وتنبه الغافل من هاته الأمة، فتكشف عنها كل كلمة، فعلمنا أن لا بدّ من التماس مساعدته في هذه المهمة، فرفعنا إليه الصحيفة التي هي لسان حالنا لتنوب لديه عن لسان مقالنا أمل الحصول على القبول شأن الأمير .. ورجاء ورود الجواب بما يراه في أمر هذه الخدمة وله، فيشرفنا بذلك رأيه العالي سؤددا وأمره الكريم مؤيدا إن شاء الله ..."[23]

وفيما يلي نسوق بعض الشهادات لمعاصريه، والذين يؤكدون من خلالها تزعم الأمير لتيار العروبة والإسلام، ومنها ما كتبه أديب إسحاق صاحب "مجلة الجوائب" في رثائه له –وهو من أصدقائه وتلامذته: "... إنّا رأيناه بحرا منظم لفظه درّا، وعرفه الناس برّا، تنشر كفه بترا، وكان في السلم غيثا، وفي الحرب لينا، وفي المهمات منارا، وفي الملمات نارا، وللعارفين ملاذا، وللخائفين منعا، ولطلاب العلوم أستاذا ..."، ثم يوجز قوله عن الأمير، ويلخصه بكلام لا يدع مجالا للشك بأن الأمير رائد العروبة والإسلام آنذاك، فيقول: "...وجملة القول أنّه بضعة الشرف العربي، وبقية المجد الشرقي، وصورة من صور السؤدد والفضل، ومظهر من مظاهر الإقدام والنبل، وتجلّ من تجليات الكرم في الفرع والأصل ..."،

---

[20] لم أعثر على مراجع تذكر كيف انتقل يوسف كرم من الجزائر إلى أوربا، وبالتحديد إلى إيطاليا.

[21] عادل الصلح، مرجع سابق، ص105-106.

[22] ينظر: وميض نظمي، **ملامح الفكر العربي في عصر اليقضة وعلاقته بفكرة القومية العربية**، دراسات في القومية العربية والوحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي، رقم 5، بيروت، 1984، ص131.

[23] سهيل الخالدي، **الإشعاع** ..، المرجع السابق، ص 138، نقلا عن: أديب إسحاق، **الكتابات السياسية والاجتماعية**، جمع وتقديم: ناجي علوش، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1978،

فالمشارقة رأوا فيه شرفهم العربي ومجدهم الشرقي، وهو ما لا يناسب إنجلترا وفرنسا وحتى تركيا،[24] فالأمير لم يكن في جيب الأتراك رغم علاقته الممتازة بالباب العالي، ولم يكن في عبّ الفرنسيين رغم محاولاتهم الإستحواذ عليه، فالرجل فيه مرونة بلا ضعف وفيه قوة بلاغرور.

ويبدو أنّ الحركة الاستقلالية وترشيح الأمير عبد القادر لقيادتها قد تجاوزت بلاد الشام إلى البلدان المجاورة، فقد روى "جمال بيهم" أنّ "حسن بيهم" كان على اتصال مع "شريف مكة" (عبد المطلب) الذي كان متداخلا مع حركة ثورية ضد الدولة العثمانية بالتنسيق مع الأمير عبد القادر الجزائري بدمشق.

### ثالثا: فتنة دمشق 1860.

تعود جذور هذه الحادثة إلى عوامل داخلية وخارجية عديدة تداخل فيها التاريخ بالجغرافيا والموروث الديني المتشدد مع الحداثة، والقوى المحلية من أعيان وتجار وأغوات مع القناصل الأجانب ودولهم الكبرى وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا، وكانت لسياسة الدولة العثمانية بإصدار المراسيم "القوانين" ما بين 1839 – 1856م التي جاءت تحت ضغط الدول الأوربية أو ما يعرف تاريخيا بالامتيازات الأجنبية، وتدخل القناصل الأجانب في سياسات الدولة العثمانية الداخلية، والتي أكدت بموجبها على مبدأ المساواة ما بين رعايا الدولة العثمانية بغض النظر عن الدين أو العرق أو اللغة، وتأكيد الامتيازات للطوائف غير الإسلامية والتأكيد على الحرية الدينية لكل مذهب، والسماح بملكية الأجنبي وإنشاء المحاكم المختلفة وحق الرعايا الأجانب بالتقاضي أمام محاكمهم في القنصليات أو دولهم.[25] ومن جانب آخر كان حكم محمد علي باشا وسياسة التحديث التي قام بها في سورية ما بين 1833 – 1840 وعمله على تكريس مبدأ المساواة بين المسلمين وغيرهم من الطوائف واعتماده بدرجة كبيرة وبخاصة في لبنان على العرب المسيحيين دور في زيادة حدة الانقسام وظهور طبقات سياسية جديدة، وبخاصة بعد خروج الحكم المصري.

### 1. الفتنة الطائفية 1830 (الأسباب – الأحداث والوقائع):

#### 1.1. أسبابها:

هناك اختلاف واضح ما بين المؤرخين حول تجدد الاضطرابات وبدايتها، ومن الذي بدأ بها من الموارنة أو الدروز، وبالتالي تحديد الجهة التي تقف وراء تلك الطائفة، وكيف وصلت إلى دمشق التي لم تشهد في تاريخها مثل هذا الأمر إلا على شكل مشاجرات عادية لا علاقة لها بالدين أو الطائفية فيها، فقد تقاذفت جميع الجهات الاتهامات ما بين الرأي الذي يقول بوجود مؤامرة يقف وراءها الانجليز، وهذا ما قاله القنصل الفرنسي معتبرا زعم القنصل البريطاني بأن

---

[24] هناك إشارة في ما كتبه الأمير محمد ابن الأمير عبد القادر بأن الأمير في آخر حياته لم يعد يثق بالمحيطين به، خاصة في تناول الدواء في فترة مرضه، ولم يعد يتناوله إلاّ من يد ولده هذا ... ورغم أن محمد يعتبر ذلك من رضا والده عليه ولا يعزوه لشيء آخر، لكننا نعلم أنه كان للعثمانيين جنودهم في المنطقة، وخاصة أن علاقة الأمير مع "حمدي باشا" والي دمشق آنذاك لم تكن جيدة منذ سنوات قبل وفاته. ينظر: الخالدي، **الإشعاع** ...، مرجع سابق، ص581.

[25] ينظر: عبد العزيز عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864 – 1914**، دار المعارف، مصر، 1969، ص20-28.

اندلاع أعمال الشغب لم يكن مدبرا مثيرا للشبهات، وأضاف لماذا لم تتعرض القنصلية البريطانية كباقي القنصليات كباقي القنصليات للهجوم، ولقد كانت هناك صلات وثيقة ما بين البريطانيين ومصطفى بك الحواصلي الذي اضطلعت قواته شبه العسكرية بدور بارز في أعمال الشغب.

ومن جانب آخر يشير بعض الباحثين إلى الأطماع الفرنسية وبخاصة نابليون الثالث في المنطقة ورغبته عن طريق مشروع المهندس الفرنسي ديسلبيس بشق قناة السويس، وكذلك إلى رغبة فرنسا العارمة في ضرب صناعة الحرير المتطورة في دمشق ونقلها إلى ليون الفرنسية أو مستعمراتها في الجزائر مستشهدين على ذلك ما أصاب السوق العالمي في الصين وفرنسا وإمكانية احتكار السوريين لمثل هذه الصناعة، وبخاصة أن أغلب هذه الصناعة يقع في الحي المسيحي، وهذه النهضة الصناعية كانت تتطور وتواكب آخر التطورات التقنية الصناعية العالمية في ذلك الوقت، ومن ذلك نظام الجاكار الميكانيكي الذي كان أول من أدخله إلى دمشق في خمسينيات القرن التاسع عشر الصناعي "حنا بولاد"وإخوته المشهورين بإنتاج (حرير البولاديّة)، الأمر الذي توجب تدميره بأية صورة كانت.

أما السبب المحلي الذي كان له دور في الفتنة فيرجعه البعض إلى أعداء حركة الإصلاح داخل الدولة العثمانية ورغبتهم في إحكام القبضة الرجعية على آليات حركة الإصلاح والعودة إلى الوراء، هذا إذا أخذنا بالحسبان أن عددا من أعيان دمشق المسلمين كان في ذمتهم ديون للأوربيين والبيوتات المالية واليهود، حتى بلغت الديون على بعض القرى ما يزيد عن ثمنها في حال بيعها، وبالتالي كان التفكير في التخلص من كل ذلك عن طريق الزج بالمدينة في فتنة تصادر فيها الأملاك والأموال وجرّت فيها العامة والرعاع والمتعطلين بسبب كساد حرفهم أمام المنتجات الأوربية الرخيصة الثمن.

### 2.1. الأحداث والوقائع:

في سبتمبر 1859 حدث صراع دموي في بلدة المتن كانت له انعكاسات مباشرة على اندلاع الصدامات الطائفية الدموية في مختلف أرجاء لبنان، فبدأت الصدامات في 28 ماي 1860 واستمرت بشكل متقطع أحرقت خلالها بلدة دير القمر التي كانت أكبر تجمع ماروني في الجبل، ودخل الدروز زحلة في 19 جوان 1860، وتم إحصاء حوالي أربعين قرية محروقة ومنهوبة في جبل لبنان حتى وصلت الصدامات إلى سهل بيروت.[26]

بدأت الأحداث بارتكاب مجزرة في دمشق في التاسع من جويلية 1860 ضد المسيحيين العرب والمسيحيين عموما، بعدما كانت قد بدأت في منطقة زحلة ودير القمر وجبل لبنان وسهل البقاع الأوسط والغربي من جهة لبنان على مدى ثمانية أيام ارتكبت فيها حشود من رعاع دمشق ومن البدو والدروز والقرويين المجاورين والعسكر والأكراد وبمعونة من اليهود مجازر وأعمال سلب ونهب وهتك واغتصاب وحرق للبيوت والمحلات التجارية، وجرت بشكل رئيسي في

[26] مسعود ظاهر، **الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني**: نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن 19م. ص469، من كتاب مؤتمر الحياة الاجتماعية في الولايات العربية في أثناء الحكم العثماني، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، زغوان – تونس، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات.

حي باب توما المسيحي، وتركزت أيضا على القنصليات الفرنسية والروسية والنمساوية والبلجيكية، وكذلك مباني البعثات التبشيرية، يضاف إليهم المسيحيين الذين فرؤوا إلى دمشق من سكان جبل الدروز وجبل الشيخ والمناطق الأخرى من لبنان ...

والمعروف أن الدول الأوربية احتجت وهدّدت بالتدخل، ففي 2 أوت 1860 اتفقت الدول الأوربية على الوقوف بجانب النصارى وحمايتهم عن قرب، وكانت ذريعة مباشرة لاحتلال الشام، فتطوعت فرنسا لداعي قربها المذهبي من المسيحيين في لبنان ولكونها المشرفة على الكنائس في بيت المقدس، وراحت بعد أسبوع واحد ترسوا بسفنها وأسطولها الحربي في ميناء بيروت وتنزل قواتها وتهدد الدروز بتأديبهم وقصف دمشق، وبذل الأمير عبد القادر كل ما في وسعه لتفادي الاحتلال، فبعد أن تأكد الأمير أن القوات الفرنسية وصلت إلى "رياق" في طريقها إلى دمشق، امتطى صهوة جواده خفية وأخذ بقطع الجبال والوديان، وعندما وصل إلى قرية "قب الياس" أرسل من يخبر الجنرال"بوفور" قائد الحملة العسكرية بوجوب الإجتماع به وعين المكان، وكان مشهدا للقاء جزائري–فرنسي على مستوى سياسي وعسكري وطلب الأمير من الجنرال أن يخبر حكومته بأن دخول قواتها دمشق أو قيامها بأي تحركات عدائية يلغي كل تعهد من قبل الأمير للإمبراطور الفرنسي "لويس فليب" بعدم العودة إلى الجزائر، وأن الأمير سيكون أول المقاومين لأي حملة عسكرية تهاجم البلاد، وكان على الجنرال أن يخبر حكومته التي أعادت حساباتها بعد هذا الإنذار، لأن إلغاء التعهد يعني احتمال عودة الأمير إلى الجزائر وعودة الحرب الضروس إليها، هذه الفتنة التي كان من المحتمل أن يذهب ضحيتها عشرات الآلاف من أبناء دمشق في سبيل مخطط استعماري كان هدفه احتلال سورية ولبنان بحجة الدفاع عن المسيحيين وإنقاذهم. ينظر: علي بن محمد الصلابي، **سيرة الأمير عبد القادر**، دار المعرفة، بيروت، ص340-341.

والملاحظ أن الأمير ومنذ سنة 1860 كان يدرك أن الدول الكبرى تتحيّن الفرصة لاحتلال المشرق العربي، وقد أبلغ أعيان الشام وخاصة الدروز بذلك، كما أدرك أن الدولة العثمانية إن فقدت هذه البلاد العربية التي تحكمها بالظلم والجور والاستبداد ستتضاءل وتنكمش، وبالتالي فإن أجهزة الجوسسة من كل صنف ولون ستخترق هذه البلاد، فكان حريصا على السرية وعلى نفي علاقته بهذا المشروع، ومن وجهة نظر أخرى للأمير وحنكته السياسية رأى أن المشروع ستتناهشه الدول الكبرى وستسعى لطيّه تحت إبطها، ولأجل ذلك ستتحالف مع العثمانيين أنفسهم لوأده كما فعلت من قبل مع "محمد علي" ومشروعه، وهكذا طوى الأمير عبد القادر المشروع، ولم يعرض البلاد إلى خطر كبير مقابل إغراء التاج، وظلّ في واقع الحال ملك الشام غير المتوّج بنظر أهلها، ولكن يمكن القول أنّه من زرع البذرة لهذا المشروع.

كما كان لاعتراف عقلاء الشام بدوره وتنويه المجتمع الدولي بفضله قد سلط الأضواء على شخصه على أنه ليس مناضلا قديما فحسب، ولكنه أيضا رجل تسامح ديني وسموّ إنساني، فتهاطلت عليه إثر ذلك رسائل الإعتراف بالجميل والتقدير والأوسمة من قادة العالم الإسلامي والأوربي والأمريكي عندئذ، كما وردت عليه رسائل الشكر والتمجيد من الجمعيات الإنسانية والماسونية والفلسفية، وبالطبع كان ذلك التعامل مع الحدث قد سلط الأضواء على بلاد الشام أيضا، ممّا جعل بعض الدول الأوربية تطرح مشاريع للمنطقة، منها إقامة إمارة عربية في بلاد الشام وأن يكون الأمير على رأسها، فهو رجل تتوفر فيه شروط الزعامة العربية من نسب شريف ونضال قومي وغيرة دينية وأصول هاشمية، ويبدوا أن الأمير كان يعرف أهداف السياسة الفرنسية والبريطانية في المنطقة، وموقف الدولة العثمانية من هذا التدخل، كما كان يعرف مدى استعداد أهل الشام لتقبل فكرة الإمارة العربية آنذاك، فترك المشروع دون التزام منه إلى أن حدثت الحرب السبعينية وسقوط نابليون الثالث، وتغيرت السياسة البريطانية، وظهرت ألمانيا بقيادة بسمارك، ودخلت الدولة العثمانية في حرب غير متكافئة مع روسيا سنة 1877.

وقد كتب الصلح وزين زين وتوبير (E.Tauber) عن هذه الحركة، ولكن بعض المعاصرين أهملوا الحديث عنها لأسباب نلخصها في جوّ الإرهاب (العثماني) الذي كان سائدا حينها، مما جعل صاحب كتاب (تحفة الزائر) المطبوع سنة 1903 يغفل الإشارة لتلك الحركة تماما لأنه (الأمير محمد) وأخواه "الأمير محي الدين" و " الأمير علي" كانوا موظفين سامين في الدولة العثملنية، كما أن الإرهاب هو الذي جعل يوسف كرم يراسل الأمير من أوربا بالتلغيز والكتمان كاتبا على بريده إليه "سرّ مودع لأمانة وشهامة فخامتكم، وكان الأمير لا يجيب يوسف كرم إلاّ بواسطة شخص مجهول بطريقة التلغيز أيضا، فكان الوسيط يكتب هكذا: (من ... إلى كرم)، أو (منه وإليه).[27]

لخص الصلح مؤهلات الأمير عبد القادر لتولي الملك في سورية في الغبارات التالية: " ... شرف النسب والبطولة والجهاد السياسي والقومي، وكونه رجل علم وأخلاق، وكونه قد سبق له تأسيس دولة عربية في الجزائر، أما كونه ليس من أهل المشرق فلم يخطر على بال أحد، لأن المشاعر الإقليمية كانت غائبة عندئذ،[28] وكان أول من قدّم اسم الأمير في المؤتمر الذي عقد في بيروت ثم في دمشق هو "أحمد الصلح"، ولم يعترض عليه أحد.

ثمّ كلّف المؤتمرون الذين حضروا وكان عددهم ثلاثون عضوا "أحمد الصلح" نفسه لإبلاغ الأمير بقرار المؤتمر، وفيه جرى كذلك البحث في الأمور الآتية: مسألة الخلافة ومسألة البيعة، وماهية الإستقلال العربي، وكان رأي الأمير هو ضرورة البيعة له من كلّ الأطراف والإبقاء على الخلافة العثمانية، أمّا الإستقلال فقد تأجل النظر فيه إلى ما بعد الحرب العثمانية الروسية التي استمرّت من 24 لأفريل 1877 إلى مارس 1878 والتي انتهت بمعاهدة "سان ستيفانو"، وبناءا على ذلك قام الأمير بزيارة عدة مدن منها: عكا ويافا والقدس وجبل عامل وصيدا ونابلس وبعلبك، ... وغيرها، وتمويها

[27] عادل الصلح، مرجع سابق، ص147.

[28] نفسه، ص98.

عن العثمانيين كانت الزيارات بعنوان تفقد أحوال المهاجرين الجزائريين الذين كانوا يبلغون حوالي ستة آلاف، ومن أهداف الزيارات إمكانية تكوين جيش منهم عند الضرورة.[29]

- **موقف الأمير من المشروع القومي**:

قد يتساءل البعض إذا كانت هذه آراء أهل المشرق العربي واقتراحاتهم ومواقفهم، فما هو موقف الأمير؟ وهل أجابهم إلى طلبهم؟ وما هي علامات تجاوبه واستجابته؟

المعلوم أن الأمير القادر ومجموعته كانوا يبثون الوعي العروبي في المساجد والمدارس، ولكن الأمير بدأ يفقد أفضل رجالاته من المهجرين الجزائريين، إذ شهدت الفترة وفاة العديد منهم، غير أن طبقة ثانية من المريدين الشاميين والجزائريين كانت قد اشرأبّت أفكاره الدينية والقومية وأساليبه في العمل السياسي المنظم، وبدأ الوعي القومي العربي يتجه إلى الأساليب العملية والموجهة فيما بعد ضد الحكومة الطورانية دون محاولة الإساءة إلى السلطان نفسه، ولعلّ أولى هذه الأساليب تمثل في رفض أهالي الشام المشاركة في الجيش الذاهب لاحتلال اليمن سنة 1872، حيث يقول صاحب يقضة العرب: "... كان احتلال الجيوش العثمانية لتلك الولاية مرّة ثانية بداية لعهد من العداء بين الترك والعرب..." [30]

كما نلاحظ أنّ الفترة ما بين 1877-1883 قد شهدت بداية التخطيط الفعلي من طرف الأمير عبد القادر لليوم الموعود، فأخذ يزور عساكره في وسط بلاد الشام والجليل وحوران، ويقول عادل الصلح في ذلك: "... وخشية من أن تلفت هذه الجولات المفاجئة أنظار السلطة وتثير تساؤلاتها، وخوفا من تنبه رجالها للغرض الحقيقي منها، اتخذ المتجولون زيارة الأمير لمواطنيه الجزائريين ذريعة لتنقلاتهم ورحلاتهم، وكان هؤلاء الجزائريون قد هاجروا من الجزائر مع الأمير، وخلال غيابه في منفاه، وبعد قدومه إلى دمشق؛ وفدوا إلى الديار الشامية وانتشروا فيها جماعات جماعات، وقدر عددهم بستة آلاف، وكان الأمير ورجال الحركة يعتبرون هذه الجماعة المدربة على القتال نواة لقوة محاربة يستعان بها عند الإقتضاء.[31]

وفي هذه الفترة كاد الأمير أن يفقد أحد رجاله السّرّيين في عكّا وهو الشيخ "علي بن أحمد اليشرطي" شيخ الطريقة الشاذلية، وهو من مواليد بنزرت في تونس،[32] ونذكر هنا أن الدولة العثمانية أخذت تبثّ الدعايات ضد الطريقة

---

[29] عدد ستة آلاف (6000) قد يكون للذين استوطنوا الأرياف، أما إذا أضفنا لهم عدد الذين سكنوا المدن فالعدد يزيد عن الثمانية آلاف، ينظر بهذا الصدد مجلة العالم الإسلامي الفرنسية **R.M.M**، 1907، ع:08، جويلية، ص511، وكذلك: محمد السنوسي، **الرحلة الحجازية**، ج3، ص114.

[30] جورج اطونيوس، **يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية**، تر: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ط8، بيروت 1987، ص160.

[31] عادل الصلح، مرجع سابق، ص102.

[32] الذي كانت طريقته قد انتشرت في منطقة عكا، وأخذت تعمل ضد الدولة العثمانية، فنفته وجماعته إلى قبرص.. فتوسط له الأمير فأعيد من المنفى، ولكنه واصل معاداته للسياسة العثمانية فقرّر الوالي مجددا نفيه إلى "فزان"، ويذكر عبد الرزاق البيطار هنا أن الأمير تدخل مرة أخرى وحبسه عنده في منزله، ثمّ بعد

الشاذلية وتتّهمها بالكفر والفجور والزندقة، وهذا يعني أنّ الصراع العربي التركي قد وصل إلى الطّرق الصّوفية ذاتها، ممّا يكشف الغطاء الديني عن الأتراك.

كما وجدنا الأمير يكثر من السفر، فزار مصر أكثر من مرّة، وكذا شبه الجزيرة العربية واستانبول وفرنسا وبريطانيا، وفي اعتقادي أنّ هذه الزيارات لم تكن للسياحة والفرجة التي يقوم بها رجل صوفي بلغ من العمر سبعين عاما، كما عمل على تنظيم علاقاته العربية في مصر مع جماعة "العربية الفتاة" و"الخديوي"، وفي ليبيا مع الطريقة السنوسية وفي تونس، وكذا في الحجاز والعراق، وبذلك نجده قد اقترب كثيرا من هدفه كرائد للقومية العربية الحديثة.

وهذا الفصل من حياة الأمير لا نكاد نجد فيه أبحاثا أو دراسات، لذلك نرى أن الموضوع يستحق البحث والتنقيب فيه، فهو بحاجة إلى بحث وتنقيب، وكذلك موضوع الصراع العربي التركي داخل الطرق الصوفية ومؤسساتها.

وبالنظر إلى كل ذلك، تظهر لنا تجربة الأمير وحنكته السياسية التي تتجلى في أدقّ صورة، فالرجل قد وافق على الفكرة من حيث المبدأ والإعداد لها، أما من حيث التجسيد والإعلان عنها فارتأى ضرورة انتظار نتائج الحرب التي تخوضها تركيا مع روسيا من جهة، ومن جهة أخرى كان الأمير يرى أن الحلّ الأمثل هو عدم الدخول في نزاع مع الدولة العثمانية المسلمة وإضعافها أمام الدول الأوربية التي تنتظر الفرصة لاحتلال البلاد العربية، ولذلك كانت فكرته تقوم على جعل الدولة العثمانية بتاجين عربي وتركي على طريقة امبراطورية النمسا والمجر في ذلك الحين.

وعليه نتساءل هنا، ماذا بقي من هذه الحركة السّرية لإعلان المملكة العربية تحت راية الأمير عبد القادر؟ يبدوا أن مؤتمر برلين 1878 ويقظة عيون العثمانيين في سورية قد جمد الحركة (الاستقلالية العربية) إلى حين، وكان وجود "مدحت باشا" على رأس ولاية سورية ومحاولته تغيير صورة الحكم العثماني واطلاعه على أنشطة رجال الحركة وتشتيتهم بدون ضجة، قد ساهم في عملية التجميد، ومن جهة أخرى كان الأمير يعاني من مرض لازمه إلى وفاته سنة 1883، وقد تركت وفاته فراغا لم يستطع غيره أن يملأه في ذلك الحين، فقد كان السوريون يعتبرون الأمير (فخرا للبلاد ورمزا لأمجاد الأمة العربية)،[33] فمشوا في جنازته في 26 ماي 1883، كما مشى فيها ممثلوا الدول الأجنبية بلباسهم الرسمي، بينما لم تشارك فيها السلطات العسكرية والمدنية العثمانية، واكتفى الباب العالي بإرسال تعازيه إلى الأمير محمد، نجل الأمير عبد القادر، وقد ادعى القنصل البريطاني أن السلطات العثمانية كانت تحسد الأمير عبد القادر على هذه المكانة التي كان يتمتع بها بين أهل سورية، ولأفكاره التحررية.[34]

**الخاتمة:**

---

مدّة أطلقه من حبسه وأرجعه إلى محلّه مشمولا بسروره وكمال أنسه. ينظر: عبد الرزاق البيطار، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، ج2، بيروت 1993، ص1065.

[33] عادل الصلح، مرجع سابق، ص134.

[34] زين، مرجع سابق، ص134.

من خلال ما تم عرضه يمكن القول أنّ أظهرت تفاصيل الفتنة الطائفية في بلاد الشام سنة 1860 أظهرت دور الأمير في إطفائها وحمايته للنصارى وإنقاذه الآلاف منهم[35] وأبانت عن مدى معرفته بالحقائق السياسة من حوله ومدى رجاحة عقله.

[35] الواقعة مشهورة في المراجع التي تناولت تلك الفترة من الحياة الدمشقية، للمزيد حول الموضوع ينظر، سهيل الخالدي، **الإشعاع المغربي في المشرق، دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام**، طبعة مزيدة ومنقحة، دار الأمة للنشر والتوزيع، 2016، ص-ص 95-99.